طب نفسى

الشقة والمعجزة!

د. محمد شعلان

التحرير

« يا حكيم ! معذرة هذا اللقاب الذى أحيى به وجهى . فليس هدفى أن أغيظ . ولكن أن أقول لك إنى لست أحدا بعينه . أنت أستاذى وأنا أحد تلاميذك . انتهزت فرصة معرفى بسكرتيرك حتى أقتحم عيادتك بدون موعد . وألغى مواعيدك الأخرى . وأظنك لن تبخل على بذلك . وعلى أية حال فالخسارة عليك ليست كبيرة . فإنك تقضى وقتا طويلا تستمع فيه إلى كلام كثير . بينما الذى كنا نتطلع إليه حينما دخلنا كلية الطب أن نناقش بعض طوابير مرضانا طوابير الجمعية . وما دمت قد اخترت هذا الطريق – أن تستمع وتتأمل وتفكر – فهذه وظيفة أنت قادر عليها ومن حقك .

ويقدر لك أنك لم تعرض علينا طريقك مستغلا سلطتك كأستاذ . بل طرحت لنا علمك لنختار منه بحرية . بدون تسلط الامتحان . فما دمت قد اخترت هذا الطريق ولم تفرضه علينا . فمن حقنا أن نجرب مدافئه على الأقل . ولذلك بأن تقبل منى مرة إنما تعانى وتشكو . ولذلك أحاطبك اليوم كمحكم وليس كأستاذ . وطرحت أمامك مشكلة تلميذ ما . أى تلميذ .

استمع إلى مهما كان كلامى قاسيا مريرا . فهو على الأقل ليس كلاما كالذى تتصور أن مرضاك الرقيقين يشكون منه . فأنا لا أشكو مثلا من أن زوجى باردة فى الفراش . ذلك أن الفراش الذى ينام عليه نحاور الغرفة التى ينام فيها إخوتى وأبى . بل إنه لو لم تكن زوجتى باردة لطلبت منها أن تكون كذلك . حماية من أفراد الأسرة . ومن جانب آخر إذا احتقنا فإننا لا نستطيع أن نخرج خلافنا إلى الضوء حتى يتصفى ونعود أحبابا بعد عداوة . فقد تعلمنا منك أن تكون الخلافات واضحة ومعلنة . حتى تكون العلاقة صافية ومكشوفة . ولكننا نخفى خلافاتنا خوفا من تدخل بقية أفراد الأسرة الذى تضح أنه يزيد الطين بله .

وشكواى بسيطة واضحة . لا تحتمل التحليل والتفسير . أريد شقة . بل شقتين إذا كان لى أن أمارس عملا حاصا فى عيادة . وليس أمامى طريق للحصول على شقة أو اثنين تعملان دخل إضافى . حتى لو تمكنت من الحصول على دخل منك . فلن يكون . وصراحة أنا لا أتطلع إلى الحصول على دخل منك . لكن أريد طوابير طويلة من المرضى أكتب لهم الروشتة تلو الروشتة . وأصدهم عشرات الكهرباء . وأحيلهم إلى المستشفيات الخاصة . بل أريد أن يكون لى مستشفى خاص . فأنا لست أقل من أصحاب الفنادق الذين يتكسبون من عيث الناس للسياحة والاستمتاع . ذلك أنى على الأقل سوف أخدم عملاء وعايتهم ومشاركتهم آلامهم . كما أريد دخلا كبيرا قبل أن أستطيع أن أتفرغ وقتا للعلم والتأمل والاستمتاع . أما الآن فإنى – مع احترامى – لا أعنى عن علمك وتأملاتك . فأنا أريد شقتين . ورغما منى نستمر . لكنى أبدأ . وقد علمت أن جامعة إحدى الدول العربية تطلب أطباء وأعضاء هيئة تدريس . وأنا أريد أن أذهب إلى هناك . ويفضل أن أحصل على شهادتى . لكن بشرط تعالينى بالعلم . فالشهادة العلمية زينة . أما الثقافة والوعى والحكمة فهى كلها أمور ليس لها سوق حتى لو دعمتها أجهزة الدولة وحمتها . كبحارة المحافظ على وجه حسن للمجتمع . فعالمنا الذى رمزى . وفاعليتها مسألة مشكوك فيها . حيث لا مال ولا سلطة من وراء الثقافة . فالناس اليوم تفضل الشاعر على الناقد وهو البطل على الراقص . والأهات على العناء . وأنا اليوم أريد أن أحلم بنفسى من هذه الكلم التى ستؤدى بى إلى الخروج . فأحلم بنفسى عملاء بالمال .

معذرة يا سيدى . أنى لم أكن أنوى البكاء . ولكن عندما هذه كمرد خطة ضعف . سوف أتغلب عليها . إنى أحلم بملك واطن دعانى إلى صاحب الذهب الأسود . أتقبس منه صحة شحم . أو حتى شمة غاز .

وهنا سمح لى أن أوجه إليك هذه الكلمة القاسية . لقد صدقك حينما كنت تتحدث عن العلاج النفسى كوسيلة من وسائل الأعصاب فى العلاج . بل كنت تميز بين مناهج العلاج النفسى التى تحترم إنسانية الإنسان . وتلك التى تتجاهلها . وكيف إن الأعصاب العلاجى يستطيع أن يحول المجنون الطائح إلى حليم وديع . ورأيتك تعلمنا بالأعصاب . فتطرح علينا مشكلك دون أن تضعه ضمن الفكر . لتتعلمه إذا أردناه عن اقتناع . ونرفضه إذا لم نرده . دون أن يكون فى استكاك إجبار . وتعلمنا منك حتى لو لم تمنحنا فيها علمنا . أو تمنحنا شهادة أو تقديرا . تعلمنا حب الناس . للناس . لا خوفا من نار أو طمعا فى جنة . ثم صدقك حينما تكلمت عن الأعصاب كمسيح للكفاح . وتعبير عن القوة لا الضعف . مستشهدا بمصطفى كامل وبقائدى فى العصر الحديث . وبزعماء الأنبياء جميعا قبل ذلك . رأيت بوضوح فوائد الأعصاب الفعلية . وتطرقت إلى صراعنا العنيف مع إسرائيل . وكيف إنه يمكننا أن نحول الخسارة المتبادلة إلى مكسب متبادل . وذلك دون سذاجة إلغاء أسس الصراع أو نفيها . فالأعصاب قد يكون إحدى وسائل التصارع . والتصارع ضرورة من ضروريات الوجود . لا ينحصر على علاقات الأعداء . بل يوجد بين الأحباب . وصدقك حينما سعدت بالمبادرة وخطوات السلام . فقد سبق أن تكلمنا حينما حول هدف البناء للوطن بالمواطد والعلم . لا بالمال المسروق . حتى نعمل ونزرع ونحصد .

لكنك تستطيع أن تستمع بالسلام والحرية مثلما تستمع بالتأمل والعلم . أما أنا فلم أعد أعرف لها قيمة . إنى أحترم حبك وسعيك للحوار . دون تفرقة بين عدو أو صديق . واحترام مبادئك ولكن المسألة لم تعد تحتمل تمادينا . ولكن بإطعام الأفواة الخائعة وبإيواء الأجساد المشردة . فأنا لا أستطيع أن أنتظر . أريد الثقة اليوم قبل الغد . والثقة الآن فيها ويستحسن المستقبل .

معذرة يا سيدى : أنا لن أشبع عقلك أفكارى أو مواقفى أو تحاليل . المسألة . أو أقف متحاملا فى حقوق الفلسطينيين أو عميل للأمريكان . بل أرجو ألا تشيء عنا بالكلام الذى أضعه على وجهى . فأنا لم أقصد أن

أذكرك بالفلسطينى . فإنك لا تقل قضيتنا عنى . إن لم تكن تريد . ولم أقصد أن أذكرك بالعرب . فإنك ما زلت حتى اليوم تعرف أصولك القبلية فى بلاد العرب جميعا وبالذات من الحجاز إلى الشام إلى المغرب . وتفخر على تدريس الطب لنا باللغة العربية . مخالفا بقية الأقسام والكليات . ولكنى فقط كل ما أقوله أنك حينما تتحدث عن السلام . وحينما تشارك فى مؤتمرات يشترك فيها إسرائيليون . فتتحاورون فيما حول السلام . فإن هناك الكثيرين ممن يسيئون الظن بنهجوتك تما ينهجونك به . وأنا أريد شقة . وأريد السفر إلى إحدى الدول العربية . ولا أجد فى نفسى الجهامة الكافية للدفاع عنك . وبدلا من أن أصحح جبنى فإنى أجد أنه من الأيسر أن أقنع نفسى بالسكوت على إدانتك . ثم أعلم أنى وإن كنت حتى الآن لا أقول إلا أن الآخرين هم الذين يخطئون . وأعلم أنى أستخدمك مثلما يستخدمك الآخرون . أريدك أن تيسر لى عملا فى الدول البترولية . فى ذات الوقت الذى أريد فيه أن تقف شاهدا فى مواجهة شيوخ البترول . حتى لو تكاتفت فى ذلك مع أمريكا أو إسرائيل أو روسيا أو الشيطان إذا تيسر ذلك

أريد أن تقف شاهدا فى سبيل حقوق الفلسطينيين . فى نفس الوقت الذى أريد فيه السلام الذى يسمح فى بالسفر للعمل للحصول على شقة . أريدك أن تيسر لى الحصول على الشهادة التى ترفع من مرتبى . وتحسن من فرصى للسفر للعمل للحصول على شقة . فى نفس الوقت الذى أريدك فيه ألا ترهجنى بالعلم أو بالفكر أو بالثقافة . وبعد أن أحصل على الشقة والنفقات التى يسطرها من يسكرنى . فسوف أبحث عن العمل فى عيادتى بالشقة الثانية والمستشفى إن أمكن . حتى أوفر لهم احتياجاتهم . وعندئذ سوف أعود إليك لأنقل منك العلم . أما الآن فلا علم ولا ثقافة بل حتى لا أريد السلطة أو المشاركة فى العمل السياسى أو الاجتماعى . وتنقل إلى من معارضى آرائك . فقط أريد الشقة . إذا كان يرضيك مظهرى وأنى صاحب مبدأ أيده الوطنية أو الثورية أو المعارضة السياسية . فلأطمئنك أن المسألة ضرورية . فما

أنا لست من الصفوة فى أى شىء . بل أعانى لأنى لست من الصفوة . فمن الطبيعى أن أكون معارضا أو أعمو هكذا . فهى أسعد من كل ذلك . أريد شقة . وإن لم تكن تستطيع أن توفر لى شقة فعلى الأقل أتوقع منك أن توفر لى فرص العمل بالسفر . وإن لم يكن فتوفر لى الشهادة التى تزيد من هذه الفرص . وهذا بصراحة هو أضعف الإيمان . أريد شقة ! ألا تفهم ؟ فلتنظر إذن وراء القلم . ما الذى أحمله فرق هذه الأكتاف . لا تتوجع . نعم . إنها شقة !

والآن أستودعك . فأنا لا أريد أن أنتظر حتى أسمع ردك . فأنا أعرف ما الذى سوف تقوله . لقد حفظت هى ظهر قلب . المسألة كلها أنى أريد شقة . وأنا لا أريد أن أسمعك مرة أخرى أرجوك أن تسمعنى دون أن أسمعك أنا بالضرورة . أن تتلمذ دون أن تعلمنى فأنا أعروم من الكلمة . وأنت لديك الفرصة لأن تقول كلمتك . وكان أملى أن تكون كلمتك تعبيرا عن ضميرك . أن تترجم بأسلوبك السلمية ما يجيش فى صدرى من صراع إلى كلام هادىء . أن تنقل صوتى هادئا عاقلا إلى مسئول . وأقصد بالمسئول من يستطيع أن يرى ويعمل . لا من يجيد التبرير أو الكلام المريح . ماهيك عن إلقاق بأى شيوعى أو متطرف فيبى أو إحدى كلمات السب الحديثة الأخرى . إذا كانت كلمتك فعلا تعبيرا صادقا فأنا أستحك أن تنقل كلمتى هذه

أستودعك الله وأعيد القلم لأحمق غيرك .

□ □

خير ما فعلت يا صديقى ان ذهبت قبل أن أرد عليك . كنت أعلم أن هناك شيئا ثقيلا تحمله على كتفيك . فقد أوقفت عملك وأعطته لخواطر من السلح . ولما لم تجد القلم الذى تعدى به بنك بالطاقة حركت الدنيا . كأنك تبحث عما يغيب وجهك أو يخفف أنك . ولم أكن أريد أن أرد عليك حتى أنبئك عن عزمك فى البحث عن احتياجاتك الأساسية . لم أكن أريد أن أعيرك بجهل العلم والثقافة . فتمضى به مزقا عن معيك المستعر الذى طالما من أجل ورقات . هو إن العلم والأخلاق والفن المدع . كل ذلك لم ترتبط بالمال . كم بى وكم من عشرى عاش فقيرا ومات فقيرا . ولكن كم منا يقرب من حق الأشياء أو عبقرية العاقرة . حتى نجد فى ذلك التواسا عن الفقر . فتذهب إذن رابطة للعجل الذهبى حله . ووسط هذه الحلاة نجد الكثيرين ممن يعانون فقرا أبهم تفهقروا درجة فى سلم الثراء والسلطة . هؤلاء الذين أثروا ثراء فاحشا بعد كل ثورة . ثم تخلفوا عن الركب قليلا . وأحيط طموحهم فى أن يستعيدوا فى التكاثر فى جمع المال أو السلطة . نجد هؤلاء يدافعون عنك . ويتحدثون باسمك . حتى هؤلاء منهم الذين خرجوا من الصفوة لنيد الشراء . مثل الانتهازية الفاضحة أو الفساد المكشوف . هؤلاء اليوم يمنعون الوطنية ويتاجرون بالرقص وبالصمود والتصدى . ويستخدمونك كالوقود لإشعال النار التى تجهد فى العودة متقدمين فى حظم الفوضى والفوضاء ليستعيدوا مكانهم فى القمة . أما الأشراف الذين يتحدثون بصوتك . ويعبرون عن مشاعرك . والمثقفون الذين لم يبرحهم بريق الذهب . فصوتهم خافت غير مسموع . ظلك يحاولون الأنضال على كتفيهم . ويصيرون فى ذات . صوتكم خافت أو مكتوم أو محبور وسط الضوضاء . فهل من مستول تحتك الحرارة والحيرة مع الرقة التى ترضى الأسد والوحوش فيلهوم مجاورة على سبح مجاورة السلام غير من كان بالأمس عدوا . ولكنها هذه المرة مجاورة داخلية نحو من يقاتل منه اليوم عدو . أى مجاورة للاقتراب بالمعارضة الشريفة الساكنة الصبورة . ولأنك ساكت . سهل عزلك وإدانتك وقذفك ككبش فداء . بدلا من توجيه الضوء للأعداء الحقيقيين

ولعل هذا أستريح إحدى القصص الدراويش التى لا أتذكر عناصيلها . ولكن فحواها : أن سلطانا أراد أن ينشىء مدرسة ليعلم فيها حكم معروف حكمته . فاستدعى الحكيم وطلب منه أن يأمر بما يريد حتى تقام المدرسة . فأمر الحكيم القوم : من يريد أن يتلقى العلم منكم فليقف على هذا الجانب . فاستجابت الأغلبية الانتهازية التى تأكل على كل : طبلية . فطلب منهم أن يبدوا بناء المدرسة . ولما أتموا بناءها . طلب الحكيم من القلة التى لم تقف معهم أن يهدموها ويذهبوا معه

إننا كثيرا ما نذكر أنفسنا أن عهد المعجزات قد انتهى . حتى نستمر فى السير فى المسالك التقليدية . فنفعل ما هو متوقع وما هو منتظر والنتيجة أن غرقنا يتمكن من النمو تما سوف نفعله . فيصل حسابه ويدير لعبة المضادة . ومع ذلك فمن كان يتوقع أن يحدث ما حدث فى مايو ١٩٧١ أو فى أكتوبر ١٩٧٣ أو فى نوفمبر ١٩٧٧ ؟ ولو كان ما حدث منتظرا لكان تدبير اللعبة المضادة ممكنا . ولما أربكت العقول الالكترونية . وما جاءت النتائج بما جاءت به .

إن حدوث مبادرة داخلية تعيد توحيد صفوف القوى الوطنية الشريفة أمر مستبعد وغير منتظر . ولكن من قال إن المنتظر هو الذى سوف يحدث ؟ المطلوب معجزة مباشرة . تنوها معجزة أكبر . وهى حصول الشاب على شقة

الخيال يتحول إلى حقيقة بفضل الإيمان والإرادة

منذ ربع قرن خطرت لخواطر مصرى فكرة رائعة لم تثبت أن سيطرت عليه . واستحوذت فى نفسه . واستحوذت على كل خلية من خلايا تفكيره .

ولكن تلك الفكرة الممتازة كانت تعترضها آنذاك عشرات المصاعب والمتاعب والعقبات . كانت مجرد فكرة أشبه بالحلم أو الخيال .

وأطلق المكتوبون على المواطن المصرى أحمد حسين وقالوا له : لا تكن خياليا . أنت تريد عمل موسوعة تجارية ضخمة تشمل العالم حافلة بأدق المعلومات . مطبوعة على ورق فاخر بألوان الألوان . وكل هذا جميل . ولكنه يحتاج إلى جهاز ضخم متعدد الجنسيات من المحررين والمندوبين والوكلاء المنتشرين فى جميع أنحاء العالم فكيف . كيف تستطيع تحقيق ذلك كله وأنت وحدك بلا معين أو نصير ؟

ولكن أحمد حسين لم ييأس . بل ازداد تصميما وإصرارا . وبدأ وحده فى تحقيق فكرته الكبيرة من (تحت الصفر) كما يقولون

وعندما تسنى أول مكتب لمؤسسة الوسيط التجارى لدول الشرق لم يكن يملك إلا إيمانه وإرادته . ولكن كم فى الحياة من مستحيلات يمكن الوصول إليها بالايمان القوى والارادة الجبارة . والجهاد الذى لا يقف عند حد .

وهكذا تحول الخيال إلى حقيقة . وأصدر أحمد حسين (الوسيط التجارى لدول الشرق) المعروف عالميا الآن باسم EASTERN TRADE DIRECTORY E.T.D والذى يطبع سنويا – منذ ربع قرن – باللغتين العربية والانجليزية فى أكثر من ١٥٠٠ صفحة من الورق الفاخر .

ولقد ساهم (الوسيط) منذ صدوره فى تعميق العلاقات التجارية والصناعية والروابط الاقتصادية والسياحية بين مختلف الدول .

واستطاع من خلال التجارب العملية والخبرات الجمة أن يكتسب فى تخصصه مكانة دولية رفيعة فى أكثر من مائة دولة فى أربع قارات بفضل تطوره المستمر وابتكاره المزيد من الامكانيات الجديدة لتنشيط التجارة بين مختلف الأسواق فضلا عن عرف الخطاب وطباعته الفاخرة . وتوزيعه العالمى الواسع الانتشار عن طريق مكاتبه المنتشرة فى جميع أنحاء العالم

إن النجاح فى الحياة يعتمد على ايمان المرء بنفسه . وايمان الناس به

وهذا القدر المتوازن من ثقة الانسان بنفسه . وثقة الناس به يعتبر عنصرا فعالا لابد منه للنجاح فى الحياة